

نيتشه، البعد الجمالي لتجربة الجنوب *Nietzsche, The Aesthetic Dimension of the Southern Experience*

د. بن دوخة هشام¹ *

¹ جامعة تلمسان hichem.bendoukha@univ-tlemcen.dz

تاريخ الاستلام: 2021/08/07 تاريخ القبول: 2021/09/30 تاريخ النشر: 2021/10/23

ملخص: تلخص تجربة الجنوب بالنسبة "لنيتشه" في نظرنا القطيعة الحقيقية مع الثقافة الألمانية وكذلك تعكس فاعلية هذه التجربة بالنسبة إليه" في الإبداع والتحول من التشاؤم الرومانسي نحو محاكاة محددات الجنوب الجمالية مثل "الظهيرة الكبرى" وموسيقى المتوسط" بما هي دلالات لتبني ثقافة جديدة قائمة على محبة الحياة والشغف بالتحدي والخلق الجمالي. وفي هذا السياق إنتقلنا إلى إكتشاف "نيتشه" لما أسميناه بتجربة الجنوب وشغفه به ممثلا في محدداته وأبعاده الجمالية. إن إرهافات الجنوب : إرادة الظهيرة أو إرادة الشمس والعود الأبدي للشيء عينه، نعتقد أنها ينبغي أن تفهم في سياق تجربة الجنوب ضد الشمال أو ضد النشاؤم الرومانسي مما يجعلنا نلاحظ بكثير من الوضوح أن تجربة الجنوب تجلت فيها ملامح جمالية بالنسبة لنيتشه كانت كذلك مصدرا للكشف عن أسس ابداعية تجلت من خلالها قيمة الحياة. كلمات مفتاحية: نيتشه، تجربة الجنوب، إرادة الظهيرة، العود الأبدي للشيء عينه...

Abstract: For Nietzsche, the southern experience sums up the real break with German culture, as well as reflects the effectiveness of this experience for him, in creativity and the shift from romantic pessimism towards imitation of the aesthetic determinants of the south, such as "the Great Noon" and the music of the Mediterranean, which are indications for the adoption of a new culture based on love Life, passion for challenge and aesthetic creation. In this context, we moved to Nietzsche's discovery of what we called the experience of the south and his passion for it, represented in its determinants and aesthetic dimensions. The harbingers of the south: the will of the noon or the will of the sun and the eternal return of the same thing, we believe that they should be understood in the context of the experience of the south against the north or against romantic pessimism, which makes us notice with much clarity that the experience of the south was revealed in which aesthetic features for Nietzsche were also a source for revealing the foundations of Creativity through which the value of life was demonstrated.

Keywords: Nietzsche, the experience of the south, the will of noon, the eternal return of the same thing...

*المؤلف المرسل:

المقدمة:

من بين الثقافات التي شهدت أهول أنواع المطرقات التي هوى بها "نيتشه" على الأنماط الثقافية السائدة، وما أكثرها عدداً!، إنما هي ثقافة الشمال وحصرها الثقافة الألمانية. فهذه المطرقة تخلص "نيتشه" من وسواس فلسفة شوبنهاور ومن غواية موسيقى "فاغنر"، وبضرباتها تهاوى التشاؤم وترنحت الرومنسية. إذا كان "نيتشه" يجزم أن خلاص الثقافة لن يتحقق إلا بإجتثاث الثقافة الألمانية بأملها من جذورها، ومن ثمة رميها في مهاوي سحيقة. فذلك لأن الثقافة الألمانية ملخصة في الرومنسية، إنما هي في نظره ثقافة جامعة لأعراض المرض، فهي الهروب والتشاؤم والإنتحار، وبالجمله هي العدمية، ثم إذ نحن تأملنا جيداً في نقد "نيتشه" لثقافة الشمال عامة لتبين لنا أيضاً أن نقده هذا ينطوي في المقابل عن نزوع نحو ضفة كانت بمثابة تجربة جديدة ضد تجربة الشمال، ولقد ساهمت هذه التجربة الجديدة في انفتاحه على النقيض الإيجابي، ثم إذا كان نفور "نيتشه" من ثقافة الشمال بديها فما هو البديل عن ثقافة الشمال بالنسبة إليه؟

1-فيلسوف مسافر نحو الجنوب:

خلافاً لكثير من القراءات السابقة وبعض الملاحظات التي تتجه إلى إعتبار مسألة إختيار "نيتشه" للجنوب (Le Sud)، بالقول أن ذلك كان بسبب ضرورات أملها عليه حالته الصحية المتذبذبة فحسب، نعتقد أنه من الأجدر أن نأخذ مسألة إختيار "نيتشه" للجنوب بكثير من التروي والحذر. لذلك ما نقترح بحثه في هذا السياق هو رؤية "نيتشه" للجنوب كإكتشاف لثقافة بديلة عن ثقافة الشمال-الألمان، هذا من جهة. ومن جهة أخرى يهمننا كثيراً أن نتبين تأثير محددات إختيار البديل الجنوبي في التلقي الفلسفي بالنسبة "لنيتشه"، ذلك أننا في عودتنا لتتبع مسألة إختيار الجنوب بالنسبة لمفكر "العود الأبدى للشيء عينه"، إلتمسنا أن اللجوء إلى " الجنوب " وإن كان ملاذاً آمناً لصحة "نيتشه" العلية، إلا أن الأهم في مقابل ذلك حسب قراءتنا، هو أن حضور "الجنوب" في شذرات ورسائل "نيتشه" المتأخرة، يكشف عن موقف من ثقافة جديدة تجاوز من خلالها ثقافة الألمان. يمكن القول كذلك، أن المتعة الجمالية للجنوب، ساهمت في فصل موقف "نيتشه" من الرومانسية وطرحها جانباً، وتحت تأثير

ثقافة الجنوب سيتم الانتقال من مستوى النقد الرومانسي إلى مستوى الإبداع الفلسفي، ذلك أن مفاهيم من قبيل: "العود الأبدي للشيء عينه" مثلا، لا يمكن أن تفهم في اعتقادنا إلا مترافقة مع محددات الجنوب في بعدها الجمالي.

يشير الفيلسوف الإيطالي الراهن: "باولو ديوريو" (Paolo D'iorio)*¹، في كتابه المهم: "سفر نيتشه إلى سورانتو" (Le voyage de Nietzsche à Sorrente)، أن إكتشاف "نيتشه" للجنوب كان بفضل الصديقة "مالويدا"، التي عرضت على الفيلسوف فكرة السفر إلى الجنوب سنة 1876 بعد تدهور

حالته الصحية². ثم إن هذه السنة: 1876، تحديدا تذكرنا بتحول حاسم في فكر الفيلسوف، وهو القطيعة مع "فاغنر" التي خلفت أثرا عميقا على نفسية "نيتشه"، ما جعلنا ننتبه إلى أن فكرة الجنوب كانت إختيارا في الوقت المناسب للبحث عن متنفس جديد وعن بديل للجو الرومانسي الإعيائي. ويمثل إختيار الجنوب بالتالي تجربة جديدة بعد رفض النظرة الرومانسية المتشائمة التي بدأت الفلسفة الألمانية مع "شوبنهور" وموسيقى "فاغنر" تنتهج من خلالها رؤية معينة للعالم، هي من دون شك مضادة للرؤية التراجيدية³.

2- الظهيرة الكبرى أو زمن تحقق الحكمة:

ويبدو لنا أن تجربة الجنوب، ستنتجه إلى جعل "الجنوبي" (sudiste) مقابلا لمفهوم الشمالي- الروماني. فتوظيف مفهوم "الظهيرة الكبرى" مثلا (Le grand Midi)، في الشذرات المتأخرة، لا يمكن أن يؤول إلا كمنبه جنوبي إن صح التعبير نقيض عن زمن التفلسف المناسب في مقابل الزمن الروماني، الذي يبدو أن هيجل" كان قد أشار إليه من خلال إستعارته في تصديره لكتابه: "أصول فلسفة الحق" (Principes de la philosophie du droit)، أين يشير: >> فقط مع الغروب تأخذ بومة مينرفا طيراتها<<⁴ (ce n'est qu'au début du crépuscule que la chouette de Minerve prend son envol)، مايفهم منه أن وقت الحكمة بمفهومه الرومانسي تعبير يفهم ههنا مجازيا، بوصفه إختيار للمساء بما هو اللحظة المناسبة للحكمة⁵*. ولعل في ذلك صورة عامة عن طابع فكر الشمال (Le Nord)، بما هو فكر مفضل لأقول الشمس (Die Sonne le soleil décliné = Sinkt). وردة الفعل عن ذلك من طرف "نيتشه"، نلاحظ أنها كانت جنوبية بإمتياز، إذ يبدو لنا أن زمن تحقق الحكمة سيحواله "نيتشه" من الغسق الهيجلي إلى اللحظة العاشقة لإرادة الشمس أو لحظة الظهيرة الكبرى (Le grand Midi)،

نستحضر في هذا السياق مقولة "نيتشه" الموجودة في شذرة من الشذرات المتأخرة للعلم المرح، أين يقول: >> تشرق شمس الحكمة مرة واحدة عندما تبلغ الظهيرة أوجها (...). إنها ساعتكم آه يا إخوة منتصف النهار<<⁶. يبدو أن التفلسف في الوقت المناسب مقرونا بمفهوم الظهيرة الكبرى، مستوحى من هذا الفهم لتجربة السفر نحو الجنوب كما يؤكد على ذلك "باولو ديوريو"⁷.

إن مفهوم الظهيرة الكبرى حسب قراءتنا، هو البعد الذي يستعيره "نيتشه" من تجربة الجنوب، ليضاد به جوهر ماهو ألماني. وأن في هذا المفهوم بالذات- الظهيرة الكبرى، تتجلى بوادر لثقافة بدأت تظهر مضادة من حيث مناخها على الأقل لثقافة الشمال. وربما لن نكون من المبالغين إن قلنا أنه بالنظر إلى توظيف "نيتشه" لمفهوم الظهيرة الكبرى، نستنتج بعدا فلسفيا وراء هذا المفهوم يعكس معنى التأكيد الفعال (L'affirmation active) لإرادة الشمس في مقابل إرادة المساء/ الضوء في مقابل الظلام، لذلك لا نتردد في إشارتنا إلى أن نضوج هذا المفهوم لدى "نيتشه"، وإن ساعده على النقاهاة من صحة متدهورة من جهة، وعلى تخطي أفق ثقافة الشمال المتشائمة من جهة أخرى، إلا أنه في كثير من الشذرات يظهر لنا أنه قد تحول إلى تجربة إبداع، بمعنى تحد جديد دفاعا عن مبدأ التصالح (Réconciliation) مع الحياة. يقول "نيتشه" في معرض رؤيته " للظهيرة الكبرى"، في قصيدة: " من قمم الجبال"(Du haut des cimes)، يبدو أنه خطها على شرفها:

>>...ياظهيرة الحياة، يا الشباب الثاني،

يا حديقة صيفية !

يا سعادة قلقة، ترصد، تتوقع:

أنا في إنتظار أصدقائي، ليل نهار، بذراعين مفتوحين !

فيا أصدقائي الجدد، أسرعوا فقد آن الأوان !

لقد صمت النشيد القديم وصرخة الرغبة العذبة،

تلاشت على شفقي،

وظهر ساحر في الوقت المحدد،

صديق للظهيرة، لا لا تسألوا

من يكون: عند الظهيرة ينشق الواحد إلى اثنين.

لنحتفل واثقين بالنصر المشترك،

بعيد الأعياد.

فزراشت الصديق، وضيف الضيوف، قد أتى !

العالم يضحك، وتمزق الستار المتعب،

وهاهو النور والليل يعقدان قرانهما.⁸

بالنظر إلى الرموز التي يشير إليها "نيتشه" من خلال إيحائه لمفهوم "الظهيرية الكبرى"، تتحدد ملامح ماكان يعنيه من خلال هذا المفهوم. فرموز من قبيل "الشباب الثاني" والسعادة والضحك (Le Rire)، تثوي وراءها متعة إن صح التعبير، وقدرة على الإنتصار بفرزها هذا المفهوم، بإحالة الوجود إلى رموز جمالية وإيجابية. إن شغف "نيتشه" بالجنوب يبدو لنا أنه إزداد في حدود هذا المفهوم – الظهيرية الكبرى-، كونه يجسد قدرة فعالة على الإبداع، نزوع قوي نحو الإنتصار، يجعل من هذا المفهوم ومن تجربة الجنوب على حد سواء، فرصة جديدة لمجابهة طابع الشمال المتشائم للوجود.

إن مفهوم الظهيرية الكبرى لا يفهم إذن في إثبات الإعجاب الجنوبي "لنيتشه" فحسب، وإنما في إثبات أن تطور فكر "نيتشه" كان بفضل بروز مفهوم مساعد على طرح أفكار جديدة ومحرض على جرأة التعبير عنها. وكذلك يظهر ذلك المفهوم فاصلا بين الثقافة الرومانسية ممثلة في مساء "هيجل" وتشاؤم "شوبنهور" والمثال الزهدي لموسيقى "فاغنر". ثم طموح في بناء ثقافة جديدة يبدو أن الجنوب يصلح كي يكون مهدا لها بامتياز لوفرتة على محددات تقع على طرفي نقيض مع ثقافة الشمال.

إن الملاحظة الأكثر أهمية في إعتقادنا، ليست في الوقوف على العلاقة بين "نيتشه" والجنوب، وإن كان لهذه العلاقة ما يبررها من الناحية الصحية على الأقل، بل كيف أن محددات ثقافة الجنوب أسست في فكر "نيتشه" جوهر تجربة جديدة لأفكار مبدعة ومنتصرة أسست كما يبدو لنا بفضل معالم الفضاء الجنوبي فكر قوة المرح (Force de Joie) أو فكر قوة الظهيرية الكبرى على حد تعبير "نيتشه".

3- حيوانات "زرادشت" أو القوى الأساسية للحياة:

إن ملامح ثقافة الجنوب الجديدة، تبدو لنا أنها إعادة صياغة لكثير من أسس ثقافة الشمال التي قامت عليها ومن ثمة السعي وراء تجاوزها. يشير "ميشال هار" في الفصل الهام : " حيوانات زرادشت. القوى الأساسية للحياة" (Les animeaux de Zarathoustra. Forces fondamentales de la vie)، من كتابه

ماوراء العدمية، أن الحيوانات المرافقة "لزادشت" لها كثير من الدلالة الفلسفية، فإختيار النسر والأفعى (L'aigle et le serpent)، لمرافقة زادشت في دربه ليس إختيارا عفويا، بل هو إستعارة Métaphore قاصدة وواعية للإشارة إلى العلاقة الحميمة بين رمزية هذه الحيوانات والحياة من جهة. والبعد الفلسفي الذي يتخفى وراء الحيوانات المرافقة لزادشت من جهة ثانية. لذلك لا يتردد "ميشال هار" في الإعلان أن هذه الحيوانات تعد تأويلا وفيها لمفهومين أساسيين على الأقل بالنسبة إلى "نيتشه"، فالنسر صورة عاكسة لمفهوم إرادة الإقتدار، بينما تكون الأفعى رمزا للعود الأبدي للشيء عينه⁹. فالنسر إرادة نزوع لامتناهية نحو الإقتدار (volonté vers la puissance). والأفعى تجسد هنا مفهوم الدوران، أي التقدم الذي تعقبه العودة (Wiederkehr) مناقضة بذلك النموذج التقدمي المنطقي المعهود¹⁰* وفي السياق ذاته يمضي "ميشال هار" بعيدا في تفكيكه للدلالة الرمزية لحيوانات زادشت، حينما يقف عند فكرة الألوان المتمثلة في هذه الأخيرة والتي لا يمكن حسبه سوى أن تشير إلى القوة الإبداعية المتجذرة في الحياة. فالأصفر العميق (Le Jaune profond) والأحمر المشع (Le Rouge ardent) يعكس الحركة الحيوية الامتناهية للأفعى (Le serpent vita)، والتي ترمز في تشكّلها إلى الحياة المبدعة (La vie créatrice)¹¹.

إن هذا التأويل الجديد الذي يشير إليه "ميشال هار" لرموز الحيوانات الحاضرة في نص " هكذا تكلم زادشت"، يمكن أن يبرر فهمنا لإنتقال "نيتشه" داخل ثقافة الجنوب من النقد الرومانسي إلى فلسفة إبداعية، ومانعنيه بهذه الأخيرة هو القدرة على إستلهاهم محددات جديدة أفرزتها تجربة السفر نحو الجنوب ذلك أن إبتكار توظيف هكذا حيوانات كان في أحضان وسط جنوبي محض، لتصبح رديفا لمعنى التحريض على الإبداع، حافزا لإستلهاهم رموز جديدة للتعبير عن فلسفته في الحياة. من خلال هذا المعنى كان "نيتشه" يشعر أنه يبتعد عن الثقافة الألمانية وكل ثقافة الشمال ويقترب من ثقافة جديدة مع تجربة الجنوب المؤكدة للحياة تأكيداً جماليا مرحا. ذلك ما يبرر أيضا مغازلة "نيتشه" إن صح التعبير لثقافة الجنوب على حساب ثقافة الشمال، في أكثر من موضع في شذراته المتأخرة، وإن كان حكمنا هذا تدل عليه إشارة صريحة مثلا في فقرة من الفقرات المتخلفة "للعلم المرح" : >> لا أملك من القوة ما يجعلني أميل إلى ثقافة الشمال (...). أملك وفرة الروح نحو ثقافة الجنوب<<¹².

وفي شذرة التحولات الثلاث (Les Trois métarphoses) ، من كتاب "هكذا تكلم زرادشت"، يشير كذلك "ميشال هار" في تأويله لرمزية التحول الثاني. (La seconde métarphose) للعقل من الجمل إلى الأسد، أن هناك تدرج في بلورة رؤية جمالية جديدة مغايرة لرؤية الرومانسية الألمانية، فالأسد في هذا الطور من أطوار تحولات العقل، لا يزال أسدا عاجزا عن إبداع قيم جديدة (Valeurs nouvelles) ¹³. يبدو أن رمزية الأسد تشير ههنا إلى حدود القدرة الرومانسية على التخطي وعن هشاشة الإرادة في هذا التحول أمام مجابهة مبدأ " يجب عليك" (Tu dois). لذلك يعتقد "ميشال هار" أن ما ينقص رمز الأسد في التحول الثاني هو مصطلح الضحك: >> فالضحك يدل على أسد مختلف عن الأسد في التحولات الثلاثة << ¹⁴. ذلك ما نستطيع تسميته مع "ميشال هار" بالأسد الضاحك" (Le lion Rieur)، دون أن تفوتنا الإشارة أن الضحك رمز الإنسان الأعلى بامتياز ¹⁵.

في هذا التأويل للأسد الضاحك وفي مجاز تحول العقل الأخير إلى الطفولة، نعتقد بكل وضوح أن ثمة تأكيدا موجبا على البراءة (L'innocence)، بداية جديدة وتوظيف لرموز تشير في مجملها إلى تأكيد على الحياة من دون أي خلفية متشائمة، ثم هل نكون على خطأ كبير إن أشرنا مثلا، أن الأسد الضاحك قد يكون نقيضا لبومة المينرفا؟، ألا يكون الضحك باعثا على التفاؤل والمرح في مقابل عبوس وتشاؤم البومة؟.

في هذا التأويل السالف "لميشال هار"، تكون رموز الحيوانات المرافقة "لزرادشت"، وكذلك مفهوم " الضحك" ليسوا إلا أدوات. تعبيرات عاكسة لتجربة جديدة مع فضاء ثقافة الجنوب، مؤسسة لتصور إبداعي يظهر من دون منازع مغايرا ومناظرا للتصور الألماني، الذي لم يفتح في إعتباراته مجالا لظهور النواز الحية المبدعة ليكتفي بحدود الفكر بما هو معرفة منفصلة عن الحياة. ومع هذا التحول قبل الجنوب تغدو رموز "نيتشه" في النصوص الأخيرة لغة إشارات، لذلك نعتقد أنه ينبغي علينا مسبقا تأويل ما هو المقصود بها ليصير بالإمكان فهم سياق توظيفها. ثم علينا أن لا نمر مرور الكرام على مصطلح الرقص، الحاضر بغزارة في نص "هكذا تكلم زرادشت".

وربما لا يجب الإندهاش كثيرا إذا لمحا إلى إمكانية فهم مصطلح " الرقص" كرؤية جديدة للاهوت مناظرة لرؤية الألمان. فالتصريح في " هكذا تكلم

زرادشت: ">> لا أستطيع أن أؤمن إلا بإله يجيد الرقص">16. يأخذ بعين الاعتبار النتائج المترتبة عن رفض الإيمان القديم ويذهب بعدم إمكانية معرفة الإله إلى آخر النتائج المتأتية عنه، أي "العدمية" (Le Nihilisme). وبالتالي إنعدام المعنى، أي إنعدام أساس القيم الأخلاقية المسيحية والتصورات الفلسفية الغربية الالهوتية وحصرها الألمانية .

وإذا كان "هيجل" يسلم بالأخلاق المسيحية والاهوت، ويرفض وضعهما موضع تساؤل كما يشير إلى ذلك " فيلولينكو" (Philonenko) في مقدمته "للإيمان والمعرفة" (Foi et savoir)، حيث غاية "هيجل" بالضبط هي إنقاذ الأخلاق والاهوت¹⁷. فإن "نيتشه" الذي لا يقبل إلا بإله راقص، سيأخذ على عاتقه وضع الأخلاق موضع التساؤل. إن شذرة من شذرات " العلم المرح" تشير إلى ذلك بكل وضوح : >> إلى حد الآن لا يوجد أحد سبق وأن تفحص هذا الطب المشهور من بين أنواع الطب الأخرى، الذي عرف بإسم الأخلاق:لأنه يلزمنا مسبقا وضعها موضع السؤال، فليكن!، ستكون بالضبط تلك مهمتنا">18.

ولا ندري إن كنا قد نجانب الصواب، إذا أشرنا إلى أن مفهوم " موت الإله"(Dieu est mort) ، هو مفهوم ورثه "نيتشه" عن عصره، لذلك نعتقد أنه سيمضي به إلى أقصى حد ساعيا إلى مجاوزة "العدمية" التي يقود إليها هذا المفهوم. وإن كنا نلاحظ أن الإله المقصود حصرا في هذا السياق هو الإله المسيحي، الذي يبدو أن "زرادشت" يضحك عن من لم يتنبأ بعد بموته!. من هنا يجب أن نفهم أن هذا الإله إن كان "زرادشت" قد أعلن موته، فإنه بالتالي كل ما كان ينسب إليه قد مات أيضا. وإذا كان "نيتشه" ينعت نفسه بالجاحد والملحد والأخلاقي (L'imoraliste) في أكثر من موضع، فما ذلك فيما يبدو لنا سوى من منظور الإيمان القديم والوصايا البالية. ثم إن النقد الذي يوجهه "نيتشه" أساسا إلى الدين المسيحي يمكن فهمه بالنظر إلى الهدف الذي يقصده من إلهه الجديد الراقص، الذي لانستطيع أن نفهم من إستعارة "رقصه" شيئا آخر، سوى كونه إله الدفاع عن مبدأ محبة الحياة!. إنه إله يؤمن بالغبطة هنا على الأرض بالرغم من الألم والموت والمصاعب. ويبغض الإنكار والنفي، إنه فخور جدا بوجوده، بحياته!. كل ذلك يدفعنا بالإعتقاد أن الإله الجديد الراقص يشكل أساس رؤية جديدة للدين، بديلة بادء ذي بدء عن الرؤية المسيحية، والتي في مضمونها تثوي قيم تركز على مبدأ التأثيم، فهدف المسيحية كما يرى "نيتشه" :>> ليس أن يصبح الإنسان أشد خلقا، بل أن يشعر دائما أنه آثم">19.

تظهر دلالة الإله الراقص إذن، موجهة بالأساس ضد دين ينعته "نيتشه" بالاجمالي (Inésthétique)، ممثلا في المسيحية وكذلك في هيمنة هذه الأخيرة على فلسفة الاهوت الألمانية. فهذا الإله الجديد يمكن إعتبره، بتعبير "ماتيو كسلر" إله قائم على "إستيطيقا سلبية"²⁰ (Une esthétique négative). وإذا كان "ريكور" يعتقد أن حملة "نيتشه" على المسيحية خاضعة للحقد، وأن تمرده ليس ولن يكون في مستوى النبي²¹. فإننا نجيبه أن "نيتشه" الداعي إلى إله راقص فنان، لا يريد إطلاقا أن يجعل من نفسه نبيا بل ولا حتى أن يكون له أتباع أو مریدين:

>> أ- مقلدين، كيف ذلك ؟، ألا تريد أن يكون لك مقلدين إطلاقا؟

ب - لا أريد أن أستخدم كمثال يحتذى قط، ما أبغيه من كل واحد هو أن يختار نموذجة بذاته تماما كما أفعل أنا.

أ - إذن... ؟ <<²².

ربما علينا في هذا السياق كذلك أن لانغفل، أن العودة إلى "زرادشت"، ليست مرجعية إلى نبي من أنبياء الدين، بل هو ليس حتى حكيما من حكماء الإغريق!. ما يسمح لنا أن نؤكد أن الرجوع إلى "زرادشت" هو إشارة إلى مثال إنسان إستطاع أن يقهر حالة معينة فيه من جهة، وإستطاع أيضا أن يتجاوز بمرح الوصايا المألوفة بين البشر.

4- العود الأبدي أو التأكيد على الحياة:

إن الإبداع الفلسفي داخل آثار "نيتشه" المتأخرة الناجمة عن تجربة السفر نحو الجنوب، يكشف كذلك عن إستلهام مفهوم فريد وأصيل. نعني به مفهوم "العود الأبدي للشيء عينه" (L'éternel retour du meme). والذي نعتقد أنه ما يجدر أن نشدد عليه مسبقا، هو أن هذا المفهوم أولا: يعتبر إلتفاتة جديدة إلى صوت الحدس (L'intuition). وثانيا: "نعتقد أن مفهوم العود الأبدي للشيء عينه" يكشف عن لحظة ذات منتشية بولوجها لعمق جمالية المكان الجنوبي المساعد على الإستجابة للحدس. إذ يكفيننا أن نشير أن تلقي هذا المفهوم كان في حوض البحيرة الجنوبية "لسيلس ماريا" (Le Lac de sils- Maria). وربما كان هذا المكان الجنوبي محرضا على الإستجابة للحدس، محفزا على الإلتفات إلى إلهام جديد. ثم كيف نفسر تبني مفهوم "العود الأبدي للشيء عينه" في هذا الفضاء

sils-Maria بالذات دون أن يحدث ذلك في رحاب الشمال؟. نعتقد أن هذا المفهوم كان بمثابة إشراق جديد (Un nouveau Jaillissement) بالنسبة "لنيتشه" استطاع من خلاله طرح الكثير من مفاهيم فلسفات الألمان جانبا، كمفهوم التاريخ الجدلي بالنسبة "لهيجل"، والأهم من ذلك أيضا فيما نرى، هو أنه يقدم نموذجا لرؤية جديدة بديلة عن الدين والاهوت. إذ يظهر كذلك هذا المفهوم دعوة إلى تجاوز الدين والاهوت في رؤيتهما للحياة ونظرتيهما إلى الإنسان. والعود الأبدي للشيء عينه " يؤيد الحياة في فكرة تقبل الصيرورة الامتناهية، وبالتالي نفهم أنه إذا كان الدين حاملا على الدوام لفكرة الفناء (La Finitude) كنهاية راسخة، فإن " العود الأبدي للشيء عينه" بالتالي إقصاء لهذه الرؤية، وإنفتاح دائم على الحياة لتستعيد من خلاله حلقاتها وتعود من جديد دائما أبدا. ذلك ما يبدولنا أن "العود الأبدي للشيء عينه" يسعى كي يسترجعه: قداسة الحياة. لذلك فهو بالجملة موقف فلسفي وديني على حد سواء، ينقذ الإنسان ويرغبه في الحياة وليس ترغيبا في عالم مفارق شأن الدين أو شأن المثل الأفلاطونية . يكفيننا أن ننصت إلى النبرات الحادة التي تنبعث وراء قصيدة " المجد والخلود " (Gloire et éternité) من كتاب " ديثرامب ديونيزوس "(Dithyrambes de Dionysos)، حتى نستشعر مفهوم "العود الأبدي للشيء عينه" بصفته " حدسا" وليس معرفة عقلية :

>> (...)

أيها الليل !

أيها السكون

ياضجيج الموت !

إني أرى رمزا

من أبعد الأماكن بعدا،

ينزل إلى ببطئ،

نجمة الوجود الأعلى !

صورة الأبدية أنت تأتين إلى ؟

إنك ضرورية.

إن حي مشتعل إلى الأبد،

بالضرورة فقط،

يانجمة الوجود الأعلى !

لاتبلغك الأمانى
ولا يعيبك أي رفض،
إنك الإقرار الأبدي للوجود
وإني الإقرار الأبدي لك
لأنني أحبك أيها الأبدية <<23.

تبدو لنا هذه الأبيات المفعمة "بالأبدية"، مساعدة لفهم أهمية "العود الأبدي للشيء عينه"، بصفته مفهوما يسعى إلى الحفاظ على الحياة في مواجهة نظريات الجدال التطوري التاريخي وفي مواجهة إفراط الدين المسيحي وفي الآن عينه الميتافيزيقا الغربية التي حصرت سعادة الإنسان في النسيان، نسيانه الحياة!. وبصرف النظر عن يقين "العود الأبدي للشيء عينه"، أو عدم الحاجة إلى تصديق وهم هذه الأبدية كما يفضل البعض، إلا أن ما يهمنا نحن تحديداً، هو أن إرهافات هذا المفهوم جديرة بأن تقرأ أولاً كما نعتقد إنطلاقاً من سياق الفضاء الجنوبي التي تمثلت فيه، مع تأكيدنا أن هذا الإكتشاف الجنوبي بالنسبة "لنيتشه"، قد تحول من تحرر مطلق من نسق فلسفات الشمال ومعتقداته الميتافيزيقية إلى حدس مبدع بفضل نفحات الجنوب الحية.

وإذا قدر لنا أن نقول أن تجربة الجنوب ساهمت في تحريض إبداع "نيتشه"، فذلك من أجل التأكيد على مسألتين بالغتي الأهمية في نظرنا: أولهما، التحرر من الثقافة الألمانية الكلاسيكية، والبحث عن بديل في رحاب ثقافة الجنوب عن تشاؤم "شوبنهاور" ومسيحية موسيقى "فاغنر". ثم إن إختيار الجنوب فيما يبدو لنا كذلك، هو إختيار الفضاء الحقيقي الذي يجسد الروح الديونيزوسية، بما هي روح مفعمة بمحبة الضوء والمرح والإنتشاء.

وثانيهما، إن مفهوم "الفلسفة في أوج الظهيرة" (La philosophie au plein Midi)، لا يجد نموذجاً في فلسفة "هيجل" وبومته، بل في رموز تمت بصلة مباشرة مع جغرافيا الجنوب، وهي ما تلخص هذا المعنى الجنوبي الذي قصدناه، كونه يفرز عن ثقافة الاتشاؤم والاعزاء أمام طابع الوجود. ذلك هو بالذات الدرس إن صح لنا نعت ذلك بهذا المصطلح البيداغوجي الذي إستوعبه "نيتشه" من تجربة الجنوب، القدرة على تأكيد الحياة التي تحولت بالنسبة إليه وبفضل محددات هذه الثقافة الجديدة إلى تجربة للتحويل والإبداع. وذلك أيضاً ما نعتقد أنه يبرر بشكل صريح الإنتقال من الضباب إلى الشمس (Du brouillard au soleil)، فهو في هذا التحويل يلخص فهماً جديداً للحياة، رؤية للحياة جديدة، قائمة على الإبتهاج

والمرح، في مقابل الفهم الشمالي والطرح الرومانسي، الذي ينتهي فيما نعتقد برؤية إنهمائية وتشاؤمية تبدو فرارا من الحياة . فالقراءة الأصيلة لتجربة الجنوب نعتقد أنها ينبغي أن تفهم كونها نتاج عن تلك المزاوجة بين حوار "نيتشه" مع ثقافة "نيتشه"- الألمان، ثم إكتشاف محددات لثقافة رديفة لمعنى القدرة على محبة الحياة ومحرضة بالتالي على إعادة إبداع مفاهيم جديدة ضد المفاهيم العدمية. بهذا المعنى فحسب يتسنى لنا فهم الإقبال على الجنوب الذي يصير "نيتشه" أن يضعه في مقابل الشمال.

5.الخاتمة:

هكذا كان الجنوب بالنسبة "لنيتشه" اكتشافا من شأنه ان يحيل به قبح الثقافة جمالا، وسقمها صحة، وتوقا حقيقيا للإتقاء مع مناخ حيوي مفعم بالحياة، وطبيعي أن من يرتقي بشغفه بذلك الفضاء الجنوبي ومحدداته الجمالية لايمكن أن يرضى بإنحطاط الثقافة إلى ذلك الدرك كما صورها الشمال المتشائم. لم تكن تجربة الجنوب بالنسبة "لنيتشه" تمثل حاجة جسديو ونفسية فحسب، بل كانت تجربة ساهمت في تحريض أفكاره وباعثة لإبداعاته. جنوب جمالي كهذا استحق في نظر "نيتشه" أن يحمل صفات النقاء والصفاء والقدرة على هزيمة الشعور بعبثية الحياة. جنوب كهذا يستحق أن يشغف به "نيتشه" وبمجد ملامحه ويتغنى بإحياءاته.

6.قائمة المصادر والمراجع:

- Nietzsche (F), la Naissance de la Tragédie ou Hellénisme et pessimisme, Trad. De L'Allemand par Jean Marnold et Jaques Morland, trad. Révisée par Jaques le Rider.
- Nietzsche (F), considération inactuelles I, II, III, Trad.de L'Allemand par Henri Albert, Trad. Révisée par Jaques Le Rider.
- Nietzsche (F), Humain trop Humain I et II, Trad. A.M.Des rousseaux et Henri Albert, Trad. Révisée par Jaques le Rider.
- Nietzsche (F), Le Gai savoir, Trad. Henri Albert, Trad. Révisée par Jean Lacoste.
- Nietzsche (F), Ainsi parlait Zarathoustra, Trad.de L'allemand par Henri Albert, Trad. Révisée par Jean Lacoste.
- Nietzsche (F), Nietzsche contre, Wagner Pièces au dossier d'un psychologue in Friedrich Nietzsche œuvres, Traduit de L'allemand par Henri Albert, Traduction Révisée par Jaques le Rider.
- Nietzsche (F), La Généalogie de la Morale, traduit de l'Allemand par Henri Albert, traduction révisée par Jaques le Rider.

- Nietzsche (F), le crépuscule des idoles ou comment on philosophe au Marteau, trad.de l'allemand par Henri Albert, traduction révisée par Jean Lacoste.
- Michel Foucault, Dits et écrits, tome2, (1970-1975), Gallimard, Paris, 1994.
- Michel Onfray, La construction du surhomme, contre-histoire de la philosophie, tome 7, éditions Grasset et Fasquelle, 2011.

-بدوي عبد الرحمن، نيتشه: خلاصة الفكر الأوربي، وكالة المطبوعات، الكويت.

الطبعة الخامسة، 1975.

المجلات:

- Magazine Littéraire, Hors- série, N°3-4ème trimestre, 2001.
- Magazine littéraire numéro 406, Février 2002.
- Le point Hors- série : Nietzsche, Schopenhauer, Kierkegaard les textes fondamentaux et leurs commentaires, Hors-série n°15, septembre – octobre 2017.
- Le portique, Revue de philosophie et de sciences Humaines, dossier : Nietzsche et le divin, numéro 8, 2eme semestre 2001.

الأساطير الجامعية:

حادي حميد، التجربة الجمالية في الفكر الفلسفي لفريدريك نيتشه، أطروحة لنيل درجة دكتوراه دولة في الفلسفة، إشراف د.أنور حمادة، جامعة وهران2، كلية العلوم الإجتماعية، قسم الفلسفة، السنة الجامعية: 2007-2008.

*1 - موسيقي وفيلسوف ذو جذور إيطالية من أهم المختصين الراهنيين في فلسفة "نيتشه"، تتلمذ على يد "مازينو مونتينياري" وهو الآن مقيم بباريس حيث يشغل مدير وحدة بحث في المركز الوطني للبحث العلمي الفرنسي بباريس CNRS أين يدير وحدة البحث: "فرقة نيتشه" (L'équipe Nietzsche). بعد مراسلات عديدة من طرفنا إلتقينا به بباريس في مكتبة "فرانسوا ميتيران (François Mitterrand) بتاريخ 09 جانفي 2015 أين أفادنا بملاحظاته الدقيقة ونصائحه الوجيهة، كما أحالنا على كثير من كتاباته الهامة.

2 - voir : Paolo(D), Le voyage de Nietzsche à Sorrente, C N R S Edition, Paris, 2012, « en voyage vers le sud », p.20.

3 - voir : Paolo(D), Le voyage de Nietzsche à Sorrente, op.cit, p.20.

4- Hegel(F), principe de la Philosophie du droit, édition critique établie par Jean François Kervégan, presse universitaire de France, 2013, p.13.

*5- المينرفا في الأسطورة الرومانية تحيل إلى إلهة الحكمة ورمزيتها هي البومة التي ستتحول فيما بعد إلى رمز الفلسفة.

6 - Nietzsche(F), Le Gai savoir, Fragments posthumes (1881 – 1882), op.cit, p.420, aph 11(329).

7 - voir : Paolo(D), Le voyage de Nietzsche à Sorrente, op.cit, p.24.

8 - Nietzsche(F), par-delà le Bien et le mal, op.cit, « Du haut des cimes », pp.735-737.

9- Voir : Haar (M), Par- delà le nihilisme, op.Cit, p.200.

*10- كنا قد أشرنا في الفصل السابق وحصرنا في المبحث الأول: ضد ثقافة الألمان، إلى إمكان قراءة مفهوم العود الأبدى للشيء عينه في مقابل تصور التاريخ بوصفه جدلا تقديميا بالنسبة "لهيجل".

¹¹ - voir : Haar (M), Par- delà le nihilisme, op.cit, p.200.

¹² - Nietzsche(F), Le Gai savoir, Fragments posthumes (1881 – 1882), op.cit, p.435, aph (52).

¹³ - Voir : Haar (M), Par- delà le nihilisme, op.Cit, p.212.

¹⁴ - Ibidem.

¹⁵ - Voir : Ibidem.

¹⁶ - Nietzsche (F),Ainsi parlait Zarathoustra, op. Cit, « Lire et écrire », p.314.

¹⁷ - Voir :Hegel (F), Foi et savoir, traduction par : Alexis Philonenko et claude le couteux, Paris, Librairie philosophique J.Vrin, 1988, p.188.

¹⁸ - Nietzsche (F), Le Gai savoir, op.cit, « La morale en tant que problème », pp.209-210, aph(345).

¹⁹ - Nietzsche (F), Humain Trop Humain, op.cit, p.521, aph (141).

²⁰ - voir :Kessler(M), L' esthétique de Nietzsche, Presse Universitaire de France, Paris, 1998,p.58.

²¹ - voir : Ricoeur (p), Le conflit des interprétations, op.cit, p.437.

²² - Nietzsche (F), Le Gai savoir, op.cit, Livre Troisième, p.161, aph(255).

²³ - Nietzsche (F), Dithyrambes de Dionysos, Trad.de L'allemand par Henri Albert, Trad.révisée par Jean Lacoste, In Friedrich Nietzsche Œuvres, Edition Robert Laffont, Paris, 1993, « Gloire et éternité », pp.1254-1255.